عصر الإمام الغزالي

مصطفى جواد

يعد الامام حجة الاسلام أبو حامد محمد الغزالي من أعلام القرن الخامس للهجرة النبوية العظيمة ، وان أدرك خمس سنوات من القرن السادس ، وهذا التحديد السنوي مألوف ومفيد في البحث عن سير الفُوَقة من العلماء لأنه يكون كالاطار للتصوير ، وكالفاصلة للتعبير، وكالصاحب للمصحوب ، والشغاف للقلوب .

والقرن الخامس للهجرة حافل بالتطورات الاجتماعية والتطور الثقافي والأحداث والحوادث السياسية . وظهور الانسان في عصر من العصور، وفتحه عينيه على قرن من القرون هما من حيز المقادير ، والأمور الخارجة عن الاختيار والتخيير ، ولذلك أوجب المؤرخون العصريون أن يكون لعصر الرجل أثر في سيرته كائناً ما كان ، وأضاف غيرهم مؤثراً جديداً هو الاتفاق أي ما يسميه الفرنسيون «لوهزارد Le hazard » وقد مثله الشاعر العربي أيسر تمثيل ، وسبق الى بيانه غير جيل بقوله:

لا تلم كفي اذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبى

ولد الامام الغزالي في بعض الروايات بقرية غزالة ، من قرى طوس في كورة خراسان ، وكورة خراسان من البلاد الشافعية المذهب ، فاذا قيل قديماً هذا خراساني ، قيل ان مذهبه شافعي ، وكان ميلاده ، كما هو معلوم ، سنة ٤٥٠ أو سنة ٤٥١ . على قول آخر ، فالأولى تقابل سنة ١٠٥٨ الميلادية ،والثانية تقابل ١٠٥٩ الميلادية .

وقيل كان مولد الامام الغزالي في مدينة طوس بخراسان على نحو من عشرة فراسخ من نيسابور قصبة الكورة .

قلت : ان كورة خراسان كانت في ذلكم العصر شافعية المذهب ، وكانت ما وراء النهر حنفية المذهب ، ويمتد المذهب الشافعي نحو الشرق لأن مصدره الشرق حتى يلتقى بالمذهب الحنبلي في أصفهان ، كما التقى بالمذهب الحنفي في بلخ ، اذن كان القطر الذي ولد فيه الامام الغزالي ، والبلد الذي رأى نور الحياة فيه ، والمحلة التي نشأ فيها ، والدار التي ربي فيها موجبة أن يكون شافعياً فكان كذلك.

لقد اصطرعت في عصر الغزالي آراء وعقائد ومذاهب ومقالات كثيرة ، منها ما كانت السياسة قد استغلتها ، ومنها ما الحماسة المذهبية أشعلتها ، ومنها ما جمعت بين الأمرين السياسة والحماسة ، ففي عصره ظهر السلجوقيون الحنفيون من التركمان ، وتقوى بهم مذهب الامام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه ، وتوغل في خراسان ونصره وزيرهم الكبير عميد الملك منصور بن محمد الكندري ، وبالغ في نصرته له ، قال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : « انه ـ أي الوزير الكندري ـ حسَّن للسلطان طغرلبك لعن المبتدعة على المنابر ، فعند ذلك أمر السلطان بأن تلعن المبتدعة على المنابر ، فاتخذ الكندري ذلك ذريعة الى ذكر الأشعرية ، وصار يقصدهم بالاهانة والأذى ، والمنع من الوعظ والتدريس ، وعزلهم عن خطابة الجامع ، واستعان بطائفة من المعتزلة ، الذين زعموا أنهم يقلدون مذهب أبي حنيفة وأشربوا في قلوبهم فضائح القدرية ، واتخذوا التمذهب بالمذهب الحنفي سياجاً عليهم ، فحسنوا للسلطان الازراء بمذهب الشافعي عمرماً ، وبالأشعرية خصوصاً ، وهذه هي الفتنة التي طار شررها فملأ الآفاق أو طال ضررها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق ، وعظم خطبها وبلاؤها »(١) • وقال أبو الفرج بن الجوزي « كان عميد الملك شديد التعصب للحنفية » • (المنتظم ٩ : ٢٣) •

ان هذه الحركة غير الموفقة ، هي التي بعثت الوزير قوام الدين نظام الملك الحسن الطوسي الشافعي على انشاء المدارس النظامية ، نسبة الى لقبه ، في المدن الاسلامية الكبرى من المملكة السلجوقية ، وذلك لنصرة العقيدة الأشعرية ، ومحاربة عقيدة الاعتزال في تلك المملكة ، تلك العقيدة التي استفحلت طوال حكم الدول البويهية ، واشترك فيها الحنفية والامامية والزيدية ، فضلا عن المعتزلة أنفسهم ، وكان آخر نصير لها الوزير عميد الملك منصور المذكور ، وهي التي أوردته مورد الهلكة ، بسعي الوزير نظام الملك ضديده في المذهب والسياسة والمشرب •

وان حركة نظام الملك في نصرة الأشعرية الشافعية ، أدركت التوفيق بمساندة الخلفاء العباسيين لها أيامئذ ، وذلك لأنهم تشفعوا في ذلك العصر ، وصرخوا بتشفعهم ، وألفت الكتب الدينية باسم الخليفة المستظهر بالله ، وهي المسمى كل منها بالمستظهري ، بعد أن كان تشفعهم ينوس بين الشافعية والحنبلية في خلافة القادر بالله العباسي ، وابنه القائم بأمر الله معاصر السلطان طغرلبك ، والوزير عميد الملك ونظام الملك •

وفي شهر رمضان من سنة ٤٩٤ امر الخليفة المستظهر بالله بفتح جامع القصر ببغداد ، وأن تصلى فيه صلاة التراويح ، ولم يكن ذلك مما جرت به عادة ، وأمر بالجهر

بالبسملة في قراءة الصلاة ، وعلى وفق مذهب الامام الشافعي(٢) ، وكان ذلك آخر ما بقي محتاجاً الى الجهر من أمور المذهب الشافعي ، في عاصمة الخلفاء العباسيين ، وكان من آثر مقاومة الاعتزال ببغداد تحت راية الخلفاء ، ما قرأناه من الاضطهاد ، في سيرة أبي علي محمد بن أحمد بن الوليد المعتزلي ، وكان على قول أبي الفرج بن الجوزي : « من دعاة المعتزلة ، وكان يدرس علم الاعتزال ، وعلم الفلسفة والمنطق فاضطره أهل السنة الى أن يلازم بيته خمسين سنة لا يتجاسر أن يظهر »(٣) . وقد توفي أبو علي بن الوليد في سنة ٤٧٨ وعمر الغزالي يومئذ خمس وعشرون سنة .

ومع هذا التشديد على الآراء والمقالات ، والعقائد المخالفة لمذهب الخلفاء العباسيين في ذلك العصر ، لم يعدم التاريخ أن يسمع من بغداد صوتاً يجهر بالشكوى النفسانية ، والحيرة العقلية ، والصرامة الفكرية وهو صوت ابن الشبل البغدادي الشاعر الحكيم كان ينادي قائلا :

بربك أيها الفلك المدار ... أقصد ذا المسير أم اضطرار ؟
وعندك تُرفع الأرواح أم هل ... مع الأجساد يدركها البوار
فان يك آدم أشقى بنيه ... بذنب ما له منه اعتذار
فيا لك أكلةً ما زال منها ... علينا نقمة وعليه عار
نُعاقَب في الظهور وما وُلدنا ... ويُذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا ... وبعد فبالوعيد لنا انتظار
فماذا الامتنان على وجود ... لغير الموجديه به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كوناً ... نخيَّر قبله أو نستشار(٤)

توفي ابن الشبل البغدادي ببغداد في سنة ٤٧٤ وعمر الغزالي أربع وعشرون سنة ، وسارت بشعر ابن الشبل الركبان ، وأخذ يشرق حتى يبلغ خراسان ، ويصغي اليه شاعر نيسابور ، الحكيم المنجم الشهير ، غياث الدين عمر الخيام ، فيقول بالفارسية في نيسابور نفسها ، معقل الشافعية :

لعبات الأطفال نحن يقيناً ... غير أن الأفلاك تلعب فينا
قد رأينا وجه الوجود سنينا ... مذ خرجنا للعب فيه زمينا
ودخلنا دار الفناء تباعاً ... وقضينا شقاوة والتياعا

أيهذا الوجود حكمك جارا

أنـا لو كان لي على الأفـلاك سـلطة الخـالق المدير السّكاك
لنقضت الجميـع دون ارتبـاك وخلقـت الأكـوان عن ادراك
فينـال الأحـرار فيهـا الأماني وقطـوف الهنـاء منهم دواني

دون هم أمضّهـم أعصـارا

واستفحلت في عصر الامام الغزالي عقيدة الاسماعيلية النزارية الرهيبة ، بمساعي الحسن بن الصباح الاسماعيلي الجلد ، وقال شمس الدين الذهبي انما هو صبّاح ، وقال في تفسير الدعوة النزارية : « كانت في حدود الثمانين وأربعمائة فيما أحسب ، وكان نزار ابن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم، قد بايع له أبوه ، وبث الدعاة في البلاد بذلك ، منهم صباح صاحب الدعوة ، وكان ذا سمت وذلَق، واظهار تنسك ، وله أتباع من جنسه ، فدخل الشام والسواحل فلم يتم له مراد ، فتوجه الى بلاد العجم ، وتكلم مع أهل الجبال والعتم الجهلة ، من تلك الأراضي ... وأما نزار فان عمته خافت منه ، فعاهدت أعيان الدولة على أن تولى أخاه الآمر ، وله ست سنين ، وخاف نزار فهرب الى الاسكندرية وجرت له أمور ثم قتل بالاسكندرية ، وأما صباح فانه قرر عند أصحابه أن الامام هو نزار فلما طال انتظارهم له وتقاضيهم اياه قال : « انه بين أعداء ، والبلاد شاسعة ، فلا يمكنه السلوك ، وقد عزم أن يختفي في بطن حامل ويجيء سالماً ، ويستأنف الولادة » . فرضوا بذلك ، ثم انه أحضر جارية قد أحبلها وقال لهم : قد اختفى نزار في بطن هذه الجارية ، فأخذوا يعظمونها ويتخشعون لرؤيتها ، و يرتقبون الامام المنتظر أن يخرج منها ، فولدت له ولداً فسماه حسناً ، وقد حكم على الملاحدة بعد صباح ابنه محمد ثم بعده الحسن بن محمد ابن صباح المذكور ، وكان صباح قد قصد قلعة الموت (على ستة فراسخ من قزوين من الجهة الشمالية) ، وهي قلعة حصينة ، أهلها ضعاف العقول وفقراء ، وفيهم قوة وشجاعة ، فقال لهم : « نحن قوم زهاد نعبد الله في هذا الجبل ، ونشتري منكم نصف القلعة بسبعة آلاف دينار ، فباعوه له وأقام فيها ، فلما قوي استولى على الجميع ، وبلغت عدة أصحابه ثلثمائة ونيفاً من الرجال، فبلغ ملك تلك الناحية أن هناك قوماً يفسدون عقائد الناس ، وهم في تزيد ويخاف من غائلتهم . فنهد اليهم ونزل عليهم ، وأقبل على سكر والتذاذ قبل المناجزة ، فقال رجل من أصحاب صباح اسمه « علي اليعقوبي » (من بلدة يعقوبا قرب بغداد) : أي شيء يكون لي عندكم ان أنا أنلتكم موتة هذا العدو ؟ فقالوا : يكون لك عندنا ذكران ـ يعنون أنهم يذكرونه في تسابيحهم ـ قال : رضيت ، وأمرهم بالنزول من القلعة ليلا وقسمهم أرباعاً في نواحي العسكر المحاصرين ، ورتب معهم طبولا وقال : اذا سمعتم الصياح فاضربوا الطبول .

ثم انتهز علي اليعقوبي الفرصة من غرة الملك وهجم عليه بسكين فقتله ، ونذر أصحاب الملك بعلي اليعقوبي فقتلوه ، وضرب أولئك الاسماعيلية الطبول فارجفوا الجيش ، فهاموا على وجوههم ، وتركوا الخيام بما فيها، فنقل صباح الجميع الى القلعة وصارت لهم

أموال وعتاد واستفحل أمرهم وشرع أهل الجبل من الأعاجم الى الدخول في دعوتهم ، وباينوا الذين قتلوا نزاراً بالاسكندرية ،وبنوا قلاعاً ، واتسع تلادهم وبلادهم ، واستنّوا الهجوم بالسكاكين اقتداء بمافعل على اليعقوبي ، وروعوا الخلفاء والسلاطين والملوك ، فمنهم من صانعوهم بالتحف والأموال والهدايا ، ثم بعثوا داعياً من دعاتهم في حدود الخمسمائة أو بعدها الى الشام يعرف بأبي محمد ، فجرت له أمور الى أن ملك قلاعاً من بلاد جبل السماق ، كانت في أيدي النصيرية ... »(٥)

أقول : وكانت العقيدة الاسماعيلية النزارية ، من العقائد العدوانية الفتاكة السفاكة للدماء ، لأنها قرنت بطلب الملك ، والملك يستهين بالدماء ، وينشر الدمار والبلاء ، ولقد فتك الاسماعيلية النزارية في ذلك العصر بجماعة من الخلفاء والسلاطين ، والملوك والأمراء والوزراء والأعيان ، والعلماء والقضاة ، والولاة والتجار ، حتى الزهاد لم يسلموا من سكاكينهم ، وقد قارن ظهور ملكهم وفتكهم في بلاد العجم والشام والعراق، ظهور الافرنج ، الغزاة المستعمرين باسم الدين ، الذين تسموا بالصليبيين ، وكان فتكهم بأمراء المسلمين عوناً للافرنج على تثبيت أقدامهم ، في طراز البحر الأبيض وبلاد الشام ، وان لم يكن ذلك العون على وفق خطة مدبرة ومواطأة محررة، قال ابن الجوزي: « وكان الغزالي قد صنف للخليفة المستظهر بالله كتاباً في الرد على الباطنية »(٦) . وقد طبع هذا الكتاب في أوربة ، ولعل اتجاه الغزالي بعد التدريس بنظامية بغداد الى بلاد الشام ، كان من خشيته الاسماعيلية الباطنية ، بعد أن ألف الكتاب المذكور في نقض مذهبهم ، وذلك قبل أن يمدوا جناحهم الأيمن غير الميمون على بلاد الشام ، ففي سنة ٥٠٧ هـ أي بعد وفاة الغزالي بسنتين دخل الأمير مودود بن ألتون يكن صاحب الموصل وخاضد شوكة الافرنج الصليبيين ، في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، دخل الجامع الأموي ليصلي فيه صلاة الجمعة مع طغتكين صاحب دمشق ، فصليا وخرج مودود الى صحن الجامع ويده في يد طغتكين ، فوثب عليه اسماعيلي فضربه بسكين كانت معه ، فجرحه أربع جراحات ، وقتل الاسماعيلي في الحال ، وأخذ رأسه فلم يعرفه أحد فأحرق ، وكان مودود صائماً ، فحمل الى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لا لقيت الله الا صائماً . فمات من يومه ، وكان الاسماعيلية بالشام قد خافوه فقتلوه غيلة ، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله ، قال ابن الأثير : كان خيراً عادلا كثير الخير حدثني والدي قال : كتب ملك الافرنج الى طغتكين بعد موت مودود كتاباً من فصوله : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها »(٧) .

فما كان أجهل القائل وأغفل الناقل :فليت شعري ما أثر الأمة في جريمة مجرم خارج عن الاسلام خارج على أئمته ؟ انها براء منه ومن جريمته . وخلاصة الأمر أن الاسماعيلية نشروا الرعب والروع والفزع والهلع في البلاد الاسلامية في عصر الغزالي ، وأصاب مكرهم مختلف الطبقات ، قال أبو الفرج بن الجوزي في وفيات سنة ٥٠٤ في سيرة مدرس النظامية بعد الغزالي على بن محمد الكيا الهراسي الشافعي : « درّس بالنظامية ببغداد مدة واتهم برأي الباطنية فأخذ ،فشهد له جماعة بالبراءة من ذلك ، منهم

أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي »(٨) • وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : « درّس بالنظامية ووعظ وذكر مذهب الأشعري فرجم وثارت الفتن ، واتهم بمذهب الباطنية فأراد السلطان قتله فمنعه الخليفة المستظهر وشهد له »(٩) •

أراد المؤرخ بالرجم رميه بالحجارة في أثناء كلامه في نصرة مذهب الأشعري، لا الرجم الشرعي الذي هو حد الزاني المحصن الذي يتم باهلاك المرجوم• اذن كانت الفتنة المذهبية ببغداد ثائرة في عصر الغزالي ، وكان الحنابلة وهم جمهور أهل العراق أيامئذ هم والشافعية الأشعرية وبعض فرق الشيعة هم المثيرين لها ،والواثب بعضهم على بعض فيها ، قال أبو الفرج بن الجوزي في حوادث سنة ٤٧٥ :« وفي يوم الجمعة لخمس بقين من شوال عبر قاص من الأشعرية يقال له البكري ـ يعني عتيقاً البكري ـ الى جامع المنصور ، ومعه الفضولي الشحنة والأتراك والعجم بالسلاح ،فوعظ في الجامع ، وكان هذا البكري فيه حدة وطيش وكان نظام الملك قد أنفذ ابن القشيري أبا نصر الى بغداد فتلقاه الحنابلة بالسب... فأخذه النظام اليه وبعث اليهم هذا الرجل ،وكان ممن لا خلاق له فأخذ يسب الحنابلة ويستخف بهم ، وكان معه كتاب من نظام الملك ، يتضمن الاذن له في الجلوس في المدرسة النظامية ، والتكلم بمذهب الأشعرية ، فجلس في الأماكن كلها وقال لا بد من الجلوس في جامع المنصور ، فقيل لنقيب النقباء العباسي، فقال : لاطاقة لي بأهل باب البصرة ، ـ يعني أنهم حنابلة جلداء ـ فقيل له : لا بد من مداراة هذا الأمر ، فقال : ابعثوا لي أصحاب الشحنة ، فأقام على كل باب من أبواب الجامع تركياً ، وحضر الفضولي الشحنة والأتراك والعجم بالسلاح وصعد المنبر، وقال : وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا • ما كفر أحمد بن حنبل وانما أصحابه • فجاءه الآجرّ ،فأخذ النقيب قوام الجامع وقال : من أين هذا الآجر ؟ فقالوا ان جماعة من الهاشميين تبطنوا سقف الجامع ورجموا الواعظ ••• ثم أنفذ البكري سفيهاً طرقياً فحكى عن الحنابلة مايليق بالله سبحانه وأغرى بشتمهم »(١٠) •

وكانت قد سبقت هذه الفتنة عدة فتن منها فتنة سنة ٤٦٩ هـ قال ابن الجوزي : « وفي شوال وقعت الفتنة بين الحنابلة والأشعرية ، وكان السبب أنه ورد الى بغداد أبو نصر ابن القشيري ، وجلس في النظامية وأخذ يذم الحنابلة وينسبهم الى التجسيم، وكان المتعصب له أبو سعد الصوفي ـ يعني شيخ الشيوخ النيسابوري ـ ، ومال أبو اسحاق الشيرازي الى نصرة القشيري ، وكتب الى نظام الملك يشكو الحنابلة ويسأله المعونة » • ثم ذكر نشوب الفتنة بينهم حتى نادى الشافعية على باب النوبي من أبواب دار الخلافة العباسية « المستنصر بالله يا منصور » يريدون الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بمصر ، اتهاماً منهم لديوان الخلافة بالعباسية بممالأة الحنابلة ،وتشنيعاً عليه(١١) ، وكان رئيس الحنابلة الشريف أبو جعفر عبد الخالق بن عيسى العباسي ، ولما جمع الشريف أبو جعفر مع زعماء الشافعية طلب اليه الوزير ابن جهير العربي التغلبي الصلح فقال له : أي صلح بيننا ، انما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دنيا ، أو قسمة ميراث أو تنازع في ملك ، فأما هؤلاء القوم ـ يعني الشافعية ـ فهم يزعمون أننا كفار ، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر فأي صلح بيننا(١٢)•

أما الفتن بين الحنابلة والشيعة ببغداد ،فكانت مستدامة قلما خلت منها حقبة من حقب التاريخ في ذلك العصر وكانت ضحاياها البشرية كثيرة وخسرانها المادي كبيراً ، وفي ذلك العصر ظهرت الفتوة بوجه جديدهو الوجه الفاطمي الذيخاف منه بنو العباس، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٧٣ هـ :« وفي ذي الحجة قبض على انسان يعرف بابن الرسولي الخباز ، وعلى عبد القادرالهاشمي البزاز، وجماعة انتسبوا الى الفتوة، وكان هذا ابن الرسولي قد صنف في معنىالفتوة وفضائلها وقانونها ، وجعل عبدالقادر الهاشمي المتقدم على من يدخل في الفتوة وأنيكونوا تلامذته وكتب لكل منهم منشوراً ، وقلده صقعاً ولقب نفسه « كاتب الفتيان » ،وجعل ذلك طريقاً الى دعوات ومجتمعات ، تعود بمصلحته ، وكتب الى خادم لصاحبمصر بمدينة النبي ﷺ يعرف بخالصة الملك ريحان الاسكندراني ، قد ندب نفسه لرئاسةالفتيان ، وصارت المكاتبات من جميع البلدان صادرة منه واليه ، والتعويل في هذا الفنوقف عليه ، وعنّ لابن الرسولي أن جعل (اجتماعهم بمسجدبرانا في غربي بغداد)،وكانمسدوداً مهجوراً ، ففتح بابه ونصب عليه باباً ، ورتب فيه من يراعيه »(١٣) ٠

وآل أمر هؤلاء الفتيان الى نهب أموالهمودورهم ، وتعزيرهم وكفهم عما سماه خصومهم « الفساد » ، يعنون مذهب الفتوة ،والأمر كان سياسياً لا غير، فان الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، بعد قرن واحد من الزمانطلع على العالم الاسلامي بوجه آخر للفتوة ، ونشرها بين الملوك والسلاطينوالشعوب الاسلامية كما هو معلوم ٠٠

هكذا كانت حال العالم الاسلامي مناصطراع المذاهب والآراء والعقائد والأفكار في عصر الامام الغزالي ، سوى ما لم نذكرهمن وجود الزندقة في أذهان فريق من الناس ، كانوا يتسترون ويتحرجون من التصريح بها ،وهم الذين وصفهم الغزالي نفسه بأنهم كانوا يصلون مع الناس لأن الصلاة عادة أهل البلد ،وحفظ للمال والولد ، فضلا عن حفظ النفوس من الهلاك ، فقد ذكرنا أن العامة كانوا يحاربون العقائد المخالفة لعقائدهم مثل الاعتزال الذي هو نوع من التفكير في العقائد الاسلامية، بغض النظر عن صحته أو بطلانه ، قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٦ هـ : « وفييوم الجمعة الثاني عشر من شعبان هجم قوم من أصحاب عبد الصمد ، على أبي علي بنالوليد ، المدرس لمذهب المعتزلة فسبوه وشتموه لامتناعه من الصلاة في الجامع وتدريسهلهذا المذهب، فقاللهم:لعن اللهمن لايؤثرالصلاة ولعن الله من يمنعني فيها ويخيفني ٠ وفيهاايماء اليهم والى أمثالهم من العوام ، لما يعتقدونه في أهل هذا المذهب ـيعني الحنبليـمن استحلال الدم ونسبتهم الى الكفر ، وأوقعوا به وجرحوه وصاح صياحاً خافوامنه اجتماع أهل الموضع معه عليهم فتركوه ، ثم أغلق بابه ، واتصل اللعن للمعتزلة فيجامع المنصور ، وجلس أبو سعد بن أبي عمامة فلعن المعتزلة »(١٤) ٠**

ونقل سبط ابن الجوزي الخبر علىصورة أخرى ، قال : « وفي شعبان من السنة المذكورة ، هجم قوم من أصحاب عبد الصمد ،ببغداد على أبي علي بن الوليد المعتزلي وسبوه ، وقالوا : هذا يقول القرآن مخلوق ،ويعتقد اعتقاد الفلاسفة ، وأن الانسان قادر

على أفعاله وأن الله يخلد في النار على الذنوب اليسيرة ، ولا يُرى يوم القيامة ، وهو لا يصلي في الجامع ويدرّس مذهب المعتزلة ، فاعتقلهم رئيس العراقين أبو أحمد النهاوندي ، وقال لهم : تُقدمون على الفتن • وأجاب ابن الوليد عما قالوه عنه وأنهي حاله الى الخليفة ، فخرج الجواب بالامساك عنه • وجلس في بيته وأغلق بابه »(١٥) •

وقد جاء في هذا الخبر اسم « أصحاب عبد الصمد» • قال حبيب الزيات الباحث المعروف، في الجزء الرابع من خزانته الشرقية : « ذكر ابن الجوزي أصحاب عبد الصمد فقال : هم أصحاب المساجد ، ونقل من أخبارهم سنة ٤٥٠ هـ ••• ويستدل من ذلك أنهم كانوا فئة من العامة المتحمسين في الدين ••• ولم نقف على شيء من ترجمة زعيمهم عبد الصمد الذي انتسبوا اليه »(١٦) •

قلت : هو أبو القاسم عبد الصمد بن عمر بن اسحاق الواعظ ، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وذكر أنه كان راوياً للحديث ثقة صالحاً زاهداً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، واليه تنسب الطائفة المعروفة بأصحاب عبد الصمد ، ثم ذكر أنه توفي سنة ٣٩٧ هـ (١٧) ، وترجمه أيضاً ابن الجوزي في المنتظم والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى(١٨) •

وكان كثير من العلماء والفقهاء فضلاء عن غيرهم ، يتنافسون في ادراك المآرب ، وبلوغ المناصب ، ويميلون الى الأبهة والفخامة ، قال ابن الجوزي نقلاً عن أبي منصور الرزاز قال : دخل أبو حامد الغزالي بغداد فقومنا ملبوسه ، ومركوبه خمسمائة دينار ، فلما تزهد وسافر وعاد الى بغداد فقومنا ملبوسه خمسة عشر قيراطاً ، قال : حدثني بعض الفقهاء عن الوزير أنوشروان بن خالد ، أنه زار أبا حامد الغزالي فقال له الغزالي : « زمانك محسوب عليك ، وأنت كالمستأجر ، فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي » • فخرج أنو شروان وهو يقول : لا اله الا الله ، هذا الرجل الذي كان في أول عمره يستزيدني فضل لقب في ألقابه ، وكان يلبس الذهب والحرير ، فآل أمره الى هذا الحال »(١٩) •

ويؤيد ميل هذا الامام الكبير الى الأبهة في أول أمره ما ذكره عبد الغافر الفارسي معاصره ، ونقله السبكي في طبقاته • قال: « وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه الى آخر ، وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة ، وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والمثالة وترك الحشمة وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى ، وزاد الآخرة فخرج عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ثم دخل الشام وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ في التصانيف المشهورة ، التي لم يسبق اليها مثل احياء علوم الدين والكتب المختصرة منها مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم ، وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق وتحسين الشمائل وتهذيب المعاش ، فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرئاسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة، الى سكون النفس، وكرم الأخلاق والفراغ من الرسوم ، والترتيبات ، وتزيا بزي الصالحين وقصر الأمل ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم الى ما يعينهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ،

والاستعداد للرحيل الى الدار الباقية ،والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقظ ، بشيء من أنوار المشاهدة،حتى مرن على ذلك ولان ... ولقد زرته مراراً وما كنت أجد في نفسي ما عهدته فيسالف الزمان عليه من الوعارة ، وانجاس الناس والنظر اليهم بعين الازدراء ،والاستخفاف ، كبراً وخيلاء ، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبادةوطلب الجاه ، والعلو في المنزلة ، انه صار على الضد . وتصفى من الكدورات ، وكنتأظن أنه متلفع بجلباب التكلف متيمن بما صار اليه ، فتحققت بعد التروي والتنقير أنالأمر على خلاف المظنون وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في ليال كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له ، من سلوك طريق التآله ، وغلبة الحال عليه بعد تبحره في العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصه الله به في تحصيل أنواع العلوم ،وتمكنه من البحث والنظر حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغريبة عن المعاملة ، وتفكرفي العاقبة وما يجدي وينفع في الآخرة ... الخ »(٢٠) .

★ ★ ★

كان العالم الاسلامي في هذا الخضم من العقائد والآراء والاختلاف والتناحر والتنافر حين هجم الافرنج على بلاد الشام واحتلوا السواحل والمدن والقرى من طراز البحر ومن داخل البلاد ، ومن جراء تلك الغفلة المهلكة ،والفتنة المردية ، سمعنا صوت أبي المظفر الأموي الشاعر الكبير يقول من أقصى خراسان وهو أسيان أشد الأسى من احتلال الافرنج لبيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الاسلام ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... تواري حياءً حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم
تَسل بأيدي المشركين قواضباً ... ستغمد منهم في الطلى والجماجم

يكـاد لهـن المسـتكن بطيبـة ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدا رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديدالأعاريب بالأذى ويغضي على ذل كماة الأعاجم ؟
فليتهـم اذ لم يـذودوا حميـة عن الدين ضنوا غيرة بالمحـارم
وانزهدوا فيالأجر اذحميالوغى فهلا أتوه رغبـة في الغنـائم ؟
لئن أذعنتتلكالخياشيم للبُرى فلا عطسـوا الا بأجدع راغـم
دعوناكم والحرب ترنو ملحـة الينـا بألحاظ النسور القشاعم
تـراقب فينـا غـارة عربيـة تطيل عليها الروم عض الأباهم
فان أنتم لم تغضبوا بعـد هذه رمينا الى أعدائنا بالخزائم(٢١)

★ ★ ★

فتأمل قوله :

« أترضى صناديـد الأعاريب بالأذى ؟! » ٠

وقـوله :

« تراقب فينـا غـارة عربيـة » ٠

تجد فيه الحس العربي يقظان بعـد طول رقاده ، وهابّاً بعد طول سباته ، والسبب في ذلك ملل العـرب من تطاول مـدد الدولالأعجمية عليهم ، وظهور امارة عربية في وادي الفرات هي امـارة بني مزيد من بني آسـدمؤسسي مدينة الحلة التي احتضنت العروبة والأدب العربي في القرون العباسية الأخيرة ،وداومت على ذلك حتى العصورالأخيرة ، وفيها في العصر المظلم نبغ صفي الدين الحلي الشاعر الكبير المشهور ٠

وأول من تحسس بالحس العربي في ذلكالعصر بنو جهير التغلبيون وعميدهم يومئـذ فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير التغلبي ،وقد ذكر سبط ابن الجوزي في حوادث ٤٥٦ هـ من مرآة الزمان أي بعد ولادة الغزالي بخمسسنين أو ست أن رئيس العراقـين أبا أحمـد الفارسي النهاوندي المقدم ذكره في أخبار ابنالوليد المعتزلي شكا وزير الخليفـة القائـم بأمر الله العباسي فخر الدولة بن جهـير الىالخليفة نفسه وقال في شكواه : «ان هذا الرجل قد نقل الدولة التركية الى العربية واستدعىبني عقيل الى العراق وفعل من ذلك في سائر الآفاق والسلطان ألب أرسلان غير مؤثر له ٠ »، فعز ذلك على الخليفة القائم وخرج جواب الشكوى بالثناء الحسن على الوزير والشكرله ، وقال : « وقد كان له في ذلك الأمر المنكود المقام المحمود وانما له أعداء يتخرصون عليه ٠ وأخل النهاوندي يده في اقطاع الوزير وأتباعه وأوقع الهوان بأصحابه ومد يده الى الضياعالسفلى والعليا »(٢٢) ٠

□ الحـواشـي :

★ عن كتاب مهرجـان الغـزالي دمشق شـوال ١٣٨٠ هـ ـ آذار ١٩٦١ م ٠

١ ـ طبقات الشافعية الكبرى (٢ : ٢٧٠) ٠

٢ ـ الكامـل لابن الأثير في حـوادث تلك السنة ٠ والمنتظـم لابن الجوزي فيها ٠

٣ ـ المنتظم (٩ : ٢٠) ٠

٤ ـ معجم الأدباء (٤ : ٣٨ ، ٤٠) وعيون الأنباء (١ : ٢٤٨) ٠

٥ ـ تاريخ الاسلام (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ الورقة ٤١ ـ ٤٢) ٠

٦ ـ المنتظم (٩ : ١٧٠) ٠

٧ ـ الكامل في حوادث سنة ٥٠٧ هـ ٠

٨ ـ المنتظم (٩ : ١٦٧) ٠

٩ ـ مرآة الزمان (٨ : ٣٨ طبعة حيدر آباد الدكن) ٠

١٠ـ المنتظم (٩ : ٣ ، ٤) ٠

١١ـ المنتظم (٨ : ٣٠٥) ٠

١٢ـ المرجع المذكور (ص ٣٠٦) ٠

١٣ـ المنتظم (٨ : ص ٣٢٦ ، ٣٢٧) ٠

١٤ـ المنتظم (٨ : ٢٣٥ ، ٢٣٦) ٠

١٥ـ مرآة الزمان (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقـة ٩٨) ٠

١٦ـ الخزانة الشرقية (٤ : ٨٢) ٠

١٧ـ تاريخ بغداد (١١ : ٤٣ ، ٤٤) ٠

١٨ـ المنتظم (٧ : ٢٣٥) والطبقات السبكية (٢ : ٢٣٩) ٠

١٩ـ المنتظم (٩ : ١٧٠) ٠

٢٠ـ طبقات الشافعية الكبرى (٤ : ١٠٨ ، ١٠٩) ٠

٢١ـ الكامل لابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٢ هـ ٠

٢٢ـ مرآة الزمان (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقـة ٩٨) ٠

★ ★ ★